التَّوْحِيدُ هُوَ أَوَّلُ دَعْوَةِ الرُّسُلِ

التوحيد

قَوْلُهُ: (نَقُولُ فِي تَوْحِيدِ اللَّهِ مُعْتَقِدِينَ بِتَوْفِيقِ اللَّهِ: إِنَّ اللَّهَ وَاحِدٌ لَا شَرِيكَ لَهُ).

اعْلَمْ أَنَّ "التَّوْحِيدَ أَوَّلُ دَعْوَةِ الرُّسُلِ.

استدل على كون التوحيد أول دعوة الرسل بجملة من الأدلة منها قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩]وذلك أن الفاء في قوله (فقال) تفيد التعقيب وأنه حصل منه الدعوة إلى التوحيد بعد حصول الإرسال له، فأول ما أرسل نوح دعا قومه إلى ذلك ﴿ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩]، وهذا التوحيد الذي دعت إليه الرسل هو الدعوة إلى إفراد الله بالعبادة، وليس هو الدعوة إلى إفراد الله بأنه خالق هذا العالم أو مدبره، لأن هذا لم يكن فيه إشكال مع المشركين، وإنما كان الإشكال في صرف العبادة لغير الله أحيانا وصرفها لله أحيانا، أي أن شركهم كان في اتخاذ الشركاء لله في العبادة.

ويلاحظ أن كل نبي يقول: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾، فلا يعرف أن أمة من الأمم ردوا على نبيهم بالسؤال عن: من هو الله الذي تريدون منا ألا نبعد غيره؟

باستثناء فرعون الذي قال: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣]، لأنه كان يتظاهر بالإلحاد وإنكار الصانع، وإلا فبقية الأمم يقولون: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً﴾ [المؤمنون: ٢٤]فكانوا يعترضون على إرسال رسول من البشر، مع إقرارهم بوجود الله تعالى.

وقد كانت الديانة اليهودية والنصرانية موجودة في بلاد العرب، وفيها تقرير الإيمان بالله وربوبيته ونحو ذلك، ولم يكونوا يستغربونها أو ينكرونها، بل كانوا يظهرون الاحترام لأصحابها، ويقرون بأنهم أعلم منهم، حتى أن المشركين حين اختلفوا في أمر النبي - صلى الله عليه وسلم - أرسلوا إلى اليهود يسألونهم: هل لهذا النبي ذكر؟ ومن على الصواب نحن أم هو؟ وقد شهد اليهود - في جوابهم على أسئلة المشركين - شهادة الزور كما حكى الله ذلك في كتابه بقوله ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ

وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾ [النساء: ٥١][(١)].

فزبدة دعوة الأنبياء حث الناس على التوجه إلى الله بالعبادة، والشعائر، والذبح، والنذر، والدعاء، ولم يشتغلوا بدعوة الناس إلى: الاعتراف بأن الله موجود، وأنه خالق السماوات والأرض ونحو ذلك؛ لأنه لم يكن في ذلك إشكال.

وَأَوَّلُ مَنَازِلِ الطَّرِيقِ.

أي إذا بدأت السير إلى الله - تعالى - فابدأ بتصحيح التوحيد؛ لأنه شرط في قبول الأعمال، فإذا فسدت العقيدة واختل التوحيد بالشرك بطلت سائر الأعمال، وردت ولم تقبل كما قال الله تعالى:

﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]

﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ

---

(١) انظر: أسباب النزول ت الحميدان (ص: ١٥٥-١٥٦)، العجاب في بيان الأسباب (٢/ ٨٨٧)، الصحيح المسند من أسباب النزول (ص: ٦٧)، المحرر في أسباب نزول القرآن من خلال الكتب التسعة (١/ ٣٩٥).

عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥]، فالدعوة إلى التوحيد هي أول منازل التربية والدعوة وأول ما ينبغي أن تنشأ عليه الأجيال.

وَأَوَّلُ مَقَامٍ يَقُومُ فِيهِ السَّالِكُ إِلَى اللَّهِ – عَزَّ وَجَلَّ –.

أي ولا بد من استصحابه معه في سائر المقامات، فالتوحيد مطلوب في كل المقامات، في أولها وفي وسطها وفي آخرها(٢)، فهو لا ينتقل منه إلى غيره بل ينتقل به إلى غيره من الطاعات والقربات، فيبقى التوحيد مصاحبا له حتى يلقى ربه تعالى، فيكون آخر كلامه من الدنيا كما جاء في الحديث «مَنْ كَانَ آخِرُ كَلَامِهِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ»(٣).

قَالَ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩]، وَقَالَ هُودٌ – عَلَيْهِ

(٢) انظر: مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٣/ ٤٤٢) وما بعدها.

(٣) صحيح مسلم (١/ ٥٥) ح٤٣ – (٢٦) من حديث عثمان – رضي الله عنه –، سنن أبي داود (٣/ ١٩٠) ح(٣١١٦). من حديث معاذ بن جبل – رضي الله عنه – واللفظ له، وصححه الألباني.

السَّلَامُ – لِقَوْمِهِ: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٦٥]، وَقَالَ صَالِحٌ – عَلَيْهِ السَّلَامُ – لِقَوْمِهِ: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٧٣]، وَقَالَ شُعَيْبٌ – عَلَيْهِ السَّلَامُ – لِقَوْمِهِ: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٨٥].

فهؤلاء أربعة من الأنبياء والرسل: نوح، وهود، وصالح، وشعيب، ذكر الله عنهم أن دعوتهم واحدة وهي قولهم لأقوامهم: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾[الأعراف: ٥٩] [الأعراف: ٦٥] [الأعراف: ٧٣] [الأعراف: ٨٥].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وهذه آيات عامة تحكي أن كل الأنبياء والرسل كانوا يدعون إلى توحيد الله – تعالى – وإفراده بالعبادة، وينهون عن الشرك.

وَقَالَ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ..»(٤).

أَوَّلُ وَاجِبٍ عَلَى الْمُكَلَّفِ هُوَ الشَّهَادَتَانِ

وَلِهَذَا كَانَ الصَّحِيحُ أَنَّ أَوَّلَ وَاجِبٍ يَجِبُ عَلَى الْمُكَلَّفِ شِهَادَةُ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، لَا النَّظَرُ، وَلَا الْقَصْدُ إِلَى النَّظَرِ، وَلَا الشَّكُّ، كَمَا هِيَ أَقْوَالٌ لِأَرْبَابِ الْكَلَامِ الْمَذْمُومِ"(٥).

هذا من الفوارق الأساسية بين منهج تقرير عقيدة أهل السنة والجماعة وبين منهج تقرير عقيدة أهل البدع في هذه المسألة.

فعند أهل السنة: أول شيء يجب على الكافر ليدخل في الإسلام: أن ينطق بالشهادتين(٦)، وإن كان مسلما فعليه أن يتعلم معنى كلمة التوحيد – فيعرف معنى النفي فيها ومعنى الإثبات

---

(٤) صحيح البخاري ح(٢٥)، صحيح مسلم ح(٢٢).

(٥) ما بين علامتي التنصيص من قوله (التَّوْحِيدَ أَوَّلُ دَعْوَةِ الرُّسُلِ...إلى قوله: لِأَرْبَابِ الْكَلَامِ الْمَذْمُومِ) هو كلام ابن القيم في مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٣/ ٤١١-٤١٢).

(٦) وهذا بالاتفاق، انظر: درء تعارض العقل والنقل (٨/ ٧).

ومعنى التأله – ومبادئ التوحيد، وأصول العبادات التي لا يصح إيمانه بدونها.

أما أهل البدع: فأول واجب عندهم النظر، أي النظر في الكون للاستدلال به على الله – تعالى – ولهم طريقة بدعية في ذلك، فطريقتهم في النظر ليست هي الطريقة التي أمرنا الله بها في القرآن من النظر في المخلوقات، لما فيها من الإحكام والعظمة والمنافع التي تدل على عظمة خالقها، وحكمته، وتنزهه عن العبث، ورحمة الله، وقدرته، وهي قبل ذلك تدل على وجود الله – تعالى –.

فهذه الطريقة في النظر ليست هي طريقتهم بل طريقتهم أنهم يقولون: هذه الموجودات أجسام وفيها أعراض، وهذه الأجسام والأعراض قابلة للتغير والحدوث، ومن ثم فهذا التغير والحدوث يدل على أنها مخلوقة، والله مخالف لهذه الأشياء، فليس فيه تغير، ولا حركة، وليس بجسم، ولا عرض، وأنه قديم ، فأثبتوا له وجودا مطلقا وعطلوه عن صفاته التي دل عليها القرآن والسنة، قالوا: وهذا الكون حادث، ولا بد للحادث من محدث قديم فالله هو

القديم إذا هو المحدث لهذا الكون الحادث، وهكذا، أما الطريقة الصحيحة في النظر فهي ما ذكرناه سابقا.

وقال بعض المتكلمين: بل أول واجب هو القصد إلى النظر، وقال بعضهم بل أول واجب الشك، سبحان الله يشك في ماذا؟! أيكون الشك في الله واجبا؟!، بل أول واجب كما يزعم هؤلاء، مع أن الشك في الله كفر أكبر لو صدر من مسلم لأخرجه من الإسلام، فكيف سيكون ذلك طريقا للدخول في الدين!![٧].

بَلْ أَئِمَّةُ السَّلَفِ كُلُّهُمْ مُتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّ أَوَّلَ مَا يُؤْمَرُ بِهِ الْعَبْدُ الشَّهَادَتَانِ، وَمُتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ قَبْلَ الْبُلُوغِ لَمْ يُؤْمَرْ بِتَجْدِيدِ ذَلِكَ عَقِيبَ بُلُوغِهِ[٨]، بَلْ يُؤْمَرُ بِالطَّهَارَةِ وَالصَّلَاةِ إِذَا بَلَغَ أَوْ مَيَّزَ عِنْدَ مَنْ يَرَى ذَلِكَ. وَلَمْ يُوجِبْ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَلَى وَلِيِّهِ أَنْ يُخَاطِبَهُ حِينَئِذٍ بِتَجْدِيدِ الشَّهَادَتَيْنِ، وَإِنْ

---

(٧) انظر: درء تعارض العقل والنقل (٧/ ٤٠٧) إلى نهاية الجزء السابع وبداية الجزء الثامن، كلها في مسألة أول واجب على المكلف، وانظر ملخص المسألة في موقف ابن تيمية من الأشاعرة (٣/ ٩٣٤- ٩٤٦).

(٨) قال ذلك شيخ الإسلام في درء تعارض العقل والنقل (٨/ ١١).

كَانَ الْإِقْرَارُ بِالشَّهَادَتَيْنِ وَاجِبًا بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ، وَوُجُوبُهُ يَسْبِقُ وُجُوبَ الصَّلَاةِ، لَكِنْ هُوَ أَدَّى هَذَا الْوَاجِبَ قَبْلَ ذَلِكَ(٩).

"وَهُنَا مَسَائِلُ تَكَلَّمَ فِيهَا الْفُقَهَاءُ: فَمَنْ صَلَّى وَلَمْ يَتَكَلَّمْ بِالشَّهَادَتَيْنِ، أَوْ أَتَى بِغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ خَصَائِصِ الْإِسْلَامِ، وَلَمْ يَتَكَلَّمْ بِهِمَا، (هَلْ يَصِيرُ مُسْلِمًا أَمْ لَا؟) وَالصَّحِيحُ أَنَّهُ يَصِيرُ مُسْلِمًا بِكُلِّ مَا هُوَ مِنْ خَصَائِصِ الْإِسْلَامِ"(١٠).

أي هل يتعين لفظ الشهادتين لدخول الكافر في الإسلام؟

أم يحكم بإسلامه إذا فعل شيئا من خصائص الإسلام، يريد به الدخول في الإسلام؟

وهذا الثاني هو الصحيح؛ لأن الشخص قد لا يحسن الشهادتين.

فإذا صلى أو صام رمضان أو حج البيت ونحو ذلك فقد دخل في الإسلام، لأن خلاصة معنى لا إله إلا الله: إعلان رفض الأديان

---

(٩) المصدر السابق (٨/ ١٣).

(١٠) درء تعارض العقل والنقل (٨/ ١٤) ما عدا ما بين القوسين.

الباطلة والدخول في دين الإسلام بعقائده وشرائعه. وكل عبارة حصل بها هذا المعنى فقد تحقق لقائلها الدخول في الإسلام.

كما في صحيح البخاري عن سالم، عن أبيه، قال: بعث النبي - صلى الله عليه وسلم - خالد بن الوليد إلى بني جذيمة، فدعاهم إلى الإسلام، فلم يحسنوا أن يقولوا: أسلمنا، فجعلوا يقولون: صبأنا صبأنا، فجعل خالد يقتل منهم ويأسر، ودفع إلى كل رجل منا أسيره، حتى إذا كان يوم أمر خالد أن يقتل كل رجل منا أسيره، فقلت: والله لا أقتل أسيري، ولا يقتل رجل من أصحابي أسيره، حتى قدمنا على النبي - صلى الله عليه وسلم - فذكرناه، فرفع النبي - صلى الله عليه وسلم - يده فقال: «اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد مرتين»[١١]. فكان قولهم صبأنا مدخلا لهم في الإسلام.

وكذلك حديث المقداد بن عمرو الكندي في صحيح البخاري أنه قال لرسول الله - صلى الله عليه وسلم -: أرأيت إن لقيت رجلا

---

(١١) صحيح البخاري ح(٤٣٣٩).

من الكفار فاقتتلنا، فضرب إحدى يدي بالسيف فقطعها، ثم لاذ مني بشجرة، فقال: أسلمت لله، أأقتله يا رسول الله بعد أن قالها؟ فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم: «لا تقتله» فقال: يا رسول الله إنه قطع إحدى يدي، ثم قال ذلك بعد ما قطعها؟ فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «لا تقتله، فإن قتلته فإنه بمنزلتك قبل أن تقتله، وإنك بمنزلته قبل أن يقول كلمته التي قال»[(١٢)]. فاعتبر النبي - صلى الله عليه وسلم - ذلك دخولا في الإسلام.

وكذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ٩٤].

ففي البخاري ومسلم عن عطاء، عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ [النساء: ٩٤]

---

(١٢) صحيح البخاري ح(٦٨٦٥)، صحيح مسلم ح(٩٥).

قال: قال ابن عباس: "كان رجل في غُنيمة له فلحقه المسلمون، فقال: السلام عليكم، فقتلوه وأخذوا غنيمته، فأنزل الله في ذلك إلى قوله: ﴿تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [النساء: ٩٤] تلك الغنيمة " قال: قرأ ابن عباس: السلام)[١٣]. ونحن وإن قلنا أنه يدخل الإسلام بكل ما سبق ونحوه إلا أنا نوصيه أن ينطق بالشهادتين.

(١٣) صحيح البخاري ح(٤٥٩١)، صحيح مسلم ح(٣٠٢٥).

"فَالتَّوْحِيدُ أَوَّلُ مَا يَدْخُلُ بِهِ فِي الْإِسْلَامِ، وَآخِرُ مَا يَخْرُجُ بِهِ مِنَ الدُّنْيَا، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: «مَنْ كَانَ آخِرُ كَلَامِهِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ»(١). وَهُوَ أَوَّلُ وَاجِبٍ وَآخِرُ وَاجِبٍ.

أنواع التوحيد ومعانيه

فَالتَّوْحِيدُ أَوَّلُ الْأَمْرِ وَآخِرُهُ"(٢)، أَعْنِي: تَوْحِيدَ الْإِلَهِيَّةِ، فَإِنَّ التَّوْحِيدَ يَتَضَمَّنُ ثَلَاثَ أَنْوَاعٍ:

أَحَدُهَا: الْكَلَامُ فِي الصِّفَاتِ.

وَالثَّانِي: تَوْحِيدُ الرُّبُوبِيَّةِ، وَبَيَانُ أَنَّ اللَّهَ وَحْدَهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ.

وَالثَّالِثُ: تَوْحِيدُ الْإِلَهِيَّةِ، وَهُوَ اسْتِحْقَاقُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْ يُعْبَدَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٣/ ٤١٢).

ودليل انحصار التوحيد في هذه الثلاثة الأنواع: استقراء نصوص الكتاب والسنة[٣]، فإذا جئت تجمع النصوص الواردة في التوحيد، تجد أنها لا تخرج عن هذه الأنواع الثلاثة، فهذا هو دليل أهل السنة على تقرير أنواع التوحيد الثلاثة: الربوبية، والإلهية، والأسماء والصفات.

(٣) وممن نص على أن دليل هذا التقسيم الاستقراء: ابن بطة كما في الإبانة الكبرى لابن بطة (٦/ ١٧٢)، الشنقيطي في أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ط دار الفكر بيروت – لبنان (٣/ ١٧-٢١)، قال العلامة بكر أبو زيد: " هذا التقسيم الاستقرائي لدى متقدمي علماء السلف، أشار إليه ابن منده، وابن جرير الطبري، وغيرهما، وقرره شيخا الإسلام ابن تيمية، وابن القيم في مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٣/ ٤١٧)، وقرره الزبيدي في تاج العروس (٩/ ٢٧٦)، وشيخنا الشنقيطي في أضواء البيان (٣/ ١٧-٢١) في آخرين – رحم الله الجميع – وهو استقراء تام لنصوص الشرع" التحذير من مختصرات الصابوني (ص٣٠). كما ذكر هذه الأقسام في ثنايا كلامه: القاضي أبو يوسف كما في الحجة في بيان المحجة لقوام السنة الأصبهاني (١/ ١٢٣).

وبعض المعاصرين الأشاعرة يقولون: أنتم بهذا التقسيم تضاهون النصارى في تثليثهم(٤)، مع أنهم يثبتون سبع صفات قديمة، فيمكن لقائل أن يقول لهم وأنتم سبعتم، فسيجيبون: بأن هذه صفات لموصوف واحد، فنقول لهم وكذلك هذه الأنواع من التوحيد هي أسماء وصفات لمسمى وموصوف واحد(٥).

فالآيات التي تتحدث عن أفعال الله – تعالى – كخلقه للسماء، والأرض، والشمس، والقمر، والنجوم، والشجر، والدواب، كقوله: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾ [الزمر: ٥] ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ

---

(٤) كما فعل الضال حسن بن علي السقاف في كتابه (التنديد بمن عدَّد التوحيد. إبطال محاولة التثليث في التوحيد والعقيدة الإسلامية)، وقد رد عليه الشيخ عبد الرزاق البدر في كتابه (القول السديد في الرد على من أنكر تقسيم التوحيد).

(٥) بل والمتكلمون "يجعلوا التوحيد ثلاثة أنواع، فيقولون: هو واحد في ذاته لا قسيم له، وواحد في صفاته لا شبيه له، وواحد في أفعاله لا شريك له" التدمرية: تحقيق الإثبات للأسماء والصفات وحقيقة الجمع بين القدر والشرع (ص: ١٧٩). إلا أن تقسيمهم هذا أغفل توحيد الإلهية.

وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤] وأمثال هذه الآيات تدل على ربوبية الله تعالى.

وهناك آيات تتحدث عن رحمته وحكمته وسعت علمه وعن عظمته كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣] ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٠٩] ﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الأنعام: ٨٠] ﴿وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢] ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾ [الرعد: ٩] ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [لقمان: ٣٠] فكل هذا من توحيد الأسماء والصفات.

وآيات تتحدث عن حقوقه وإلهيته ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [آل عمران: ٥١] ﴿فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [غافر: ٦٥] ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ [آل عمران: ٥٠] ﴿فَلَهُ أَسْلِمُوا﴾ [الحج: ٣٤] ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾ [البقرة: ٢٢] ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ١١٢] ﴿وَاشْكُرُوا لِلَّهِ

إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢] ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٣] ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩] ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٦] ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨] ﴿خَاشِعِينَ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ١٩٩] ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النساء: ١٢٥] ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤] ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣٢] فلا بد من طاعة واستسلام وانقياد وحب، كل هذا من توحيد الألوهية.

إذا هناك آيات تتحدث عن حقوق له، وآيات تتحدث عن أفعاله، وآيات تتحدث عن أسمائه وصفاته، فأمكن أن نقسمها إلى ثلاثة أقسام:

١. توحيد الربوبية.

٢. توحيد الإلهية التي هي أفعالنا له أي عباداتنا فنوحده بها.

٣. وتوحيد الأسماء والصفات وأنه لا مثيل له في ذلك.

فسورة الكافرون في توحيد العبادة ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ [الكافرون: ٢، ٣]، وسورة الإخلاص توحيد أسماء وصفات، وكذلك ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ [الناس: ١]هذا توحيد الربوبية، ﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾ [الناس: ٢] أسماء وصفات، ﴿إِلَهِ النَّاسِ﴾ [الناس: ٣] توحيد الألوهية، وعلى هذا فقس.

فآيات القرآن دالة على صحة هذا التقسيم، فلا معنى لاستنكار هذا التقسيم.

وسيشير المؤلف في كلامه الآتي، إلى أن هناك من الناس، من أدخل في هذه الأقسام، جملة من المعاني الباطلة.

تَوْحِيدُ الصِّفَاتِ

أَمَّا الْأَوَّلُ: فَإِنَّ نُفَاةَ الصِّفَاتِ أَدْخَلُوا نَفْيَ الصِّفَاتِ فِي مُسَمَّى التَّوْحِيدِ، كَالْجَهْمِ بْنِ صَفْوَانَ وَمَنْ وَافَقَهُ، فَإِنَّهُمْ قَالُوا: إِثْبَاتُ الصِّفَاتِ يَسْتَلْزِمُ تَعَدُّدَ الْوَاجِبِ.

وذلك أنهم توهموا أن تعدد الصفات القديمة يلزم منه تعدد الآلهة، وهذا ناتج عن عقولهم المنحرفة التي مُلأت بالشبهات الفلسفية.

فقالوا: لو أثبتنا سمعا قديما، وعلما قديما، وبصرا قديما، للزم من ذلك تعدد القدماء، فتكون آلهة متعددة. لكن العربي - صاحب الفطرة السليمة - يقول: أنا لا أعرف صفات بدون ذات، ولا أعرف أن الصفات شيء والذات شيء ثان، لا يمكن وجود ذات خارج الذهن إلا بصفات، فالذات الواحدة توصف بالعلم، والسمع، والبصر، والقدرة وغير ذلك وهي ذات واحدة، فهؤلاء المبتدعون أدخلوا على المسلمين الفلسفات ومنها علم المنطق فأفسدوا العقول والعقائد.

وَهَذَا الْقَوْلُ مَعْلُومُ الْفَسَادِ بِالضَّرُورَةِ، فَإِنَّ إِثْبَاتَ ذَاتٍ مُجَرَّدَةٍ عَنْ جَمِيعِ الصِّفَاتِ لَا يُتَصَوَّرُ لَهَا وُجُودٌ فِي الْخَارِجِ وَإِنَّمَا الذِّهْنُ قَدْ يَفْرِضُ الْمُحَالَ وَيَتَخَيَّلُهُ وَهَذَا غَايَةُ التَّعْطِيلِ.

أي خارج الذهن، فإن أي ذات تتصورها فلا بد أن تكون لها صفات معينة.

وَهَذَا الْقَوْلُ قَدْ أَفْضَى بِقَوْمٍ إِلَى الْقَوْلِ بِالْحُلُولِ أَوِ الِاتِّحَادِ، وَهُوَ أَقْبَحُ مِنْ كُفْرِ النَّصَارَى، فَإِنَّ النَّصَارَى خَصُّوهُ بِالْمَسِيحِ، وَهَؤُلَاءِ عَمُّوا جَمِيعَ الْمَخْلُوقَاتِ.

"وَمِنْ فُرُوعِ هَذَا التَّوْحِيدِ: أَنَّ فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ كَامِلُو الْإِيمَانِ، عَارِفُونَ بِاللَّهِ عَلَى الْحَقِيقَةِ.

وإنما افضى هذا المعتقد الى القول بالحلول والاتحاد لأنهم نفوا أن يكون فوق سبع سماوات، فاعتقد عُبَّادهم: الحلول والاتحاد، وأما متكلموهم فقد جعلوه لا داخل العا لم ولا خارجه، وهو إلحاد آخر متستر بالتنزيه

ومن فروع هذا التوحيد المزيف: أن فرعون مؤمن، لأنه قال ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤] قالوا: ففرعون فهم القضية وهي: أن الكل أرباب.

وقال بعضهم: الخطأ في قول فرعون ﴿أَنَا﴾ فقط، ولو قال (كل شيء رب) لكان مصيبا.

وَمِنْ فُرُوعِهِ: أَنَّ عُبَّادَ الْأَصْنَامِ عَلَى الْحَقِّ وَالصَّوَابِ، وَأَنَّهُمْ إِنَّمَا عَبَدُوا اللَّهَ لَا غَيْرَهُ.

قالوا: هؤلاء فهموا الحقيقة؛ ولكن المفروض أن لا يخصوه بالأصنام، بل يعمم فيعبد كل شيء، وهكذا انتهى قولهم إلى أن الله هو هذا الكون.

وَمِنْ فُرُوعِهِ: أَنَّهُ لَا فَرْقَ فِي التَّحْرِيمِ وَالتَّحْلِيلِ بَيْنَ الْأُمِّ وَالْأُخْتِ وَالْأَجْنَبِيَّةِ، وَلَا فَرْقَ بَيْنَ الْمَاءِ وَالْخَمْرِ، وَالزِّنَا وَالنِّكَاحِ، وَالْكُلُّ مِنْ عَيْنٍ وَاحِدَةٍ، لَا بَلْ هُوَ الْعَيْنُ الْوَاحِدَةُ، وَمِنْ فُرُوعِهِ: أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ ضَيَّقُوا عَلَى النَّاسِ - تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ـــ"(٦).

فقيل لهم: إذا كان هذا اعتقادكم فيلزم من ذلك أنه لا يوجد حلال ولا حرام!، فلا فرق بين الأم والأخت والبنت في جواز النكاح، ولا

(٦) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٣/ ٤١٦) باختصار يسير.

فرق بين المعاصي والطاعات!، قالوا(٧): نعم، وأنتم(٨) قلتم حرام، فقلنا(٩) عليكم(١٠). ومن ثم فقد صار هناك تقارب بين دعاة وحدة الوجود والحلول والاتحاد بزعامة ابن عربي(١١) وبين الشيوعيين، ولذلك فقد أمر الشيوعيون في روسيا بإنشاء مركز خاص لدراسة فكر ابن عربي، وكذلك الحداثيون تجدهم يتسترون بابن عربي.

أما عقيدة المسلمين، أصحاب الفطرة السليمة عموما، فهي: أن الله فوق سبع سموات، مستو على العرش، بائن من الخلق، قال تعالى – في ستة مواضع من كتابه – ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤] [يونس: ٣] [الرعد: ٢] [الفرقان: ٥٩] [السجدة: ٤] [الحديد: ٤]، وقال تعالى ﴿أَأَمِنْتُمْ مَنْ

---

(٧) أي أصحاب وحدة الوجود ومن على شاكلتهم.

(٨) أي أهل الإسلام.

(٩) أي أصحاب وحدة الوجود ومن على شاكلتهم.

(١٠) انظر: المصدر السابق (٣/ ٤١٦).

(١١) هو محيي الدين أبو بكر محمد بن علي بن محمد بن أحمد الطائي توفي: في ربيع الآخر، سنة ثمان وثلاثين وست مائة. وانظر في بيان حاله وحال نحلته كتاب: مصرع التصوف وهو كتابان: تنبيه الغبي إلى تكفير ابن عربي، وتحذير العباد من أهل العناد ببدعة الاتحاد للبقاعي.

﴿فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ [الملك: ١٦]، ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام: ١٨] [الأنعام: ٦١]، وعقيدة المسلمين أن الله أسرى بمحمد من مكة إلى بيت المقدس ثم عرج به إلى السماء إلى الله سبحانه وتعالى.

فبين المؤلف أن هؤلاء المبتدعة عطلوا الله عن صفاته، ثم اعتقدوا أنه في كل مكان، وتفرع عن ذلك أن أي شيء تعبده فالله حال فيه، وأنك إنما عبدت الله – عز وجل – ورحم الله ابن الأمير حين قال(١٢):

وأكفر أهل الأرض من قال: إنه ... إله وأن الله – جل عن الند –

مسماه كل الكائنات جميعها ... من الكلب والخنزير والقرد والفهد

وأن عذاب النار عذب لأهله ... سواء عذاب النار أو جنة الخلد

وعباد عجل السامري على هدى ... ولائمهم في اللوم ليس على رشد

وينشدنا عنه نصوص فصوصه ... تنادي: خذوا في النظم مضمون ما عندي

وكنت امرأ من جند إبليس فارتمى ... بي الدهر حتى صار إبليس من جندي

(١٢) ديوان ابن الأمير ص (١٣٠) ضمن قصيدته التي مدح فيها الإمام محمد بن عبد الوهاب – رحم الله الجميع –.

فلو مات قبلي كنت أدركت بعده دقائق كفر ليس يدركها بعدي

فلما أنكر أهل التعطيل قيام الصفات بالرب، وقالوا أنه يلزم من تعدد الصفات تعدد الآلهة، قيل لهم ماذا تريدون أن تقولوا؟

قالوا: نريد أن نقول أن الله موجود؛ ولكن لا يمكن أن نقول أنه فوق السماوات، ولا يمكن أن نقول أنه تحت، ولا يمكن أن نقول أنه في جهة، ولا يصح أن نشير إليه.

قلنا لهم: فما نهاية قولكم هذا؟! أإله موجود وهو لا داخل العالم ولا خارجه؟!

قالوا: هو موجود وجودا مطلقا!.

وهذا القول هو قول المتفلسفين الذين ليس لهم عبادات.

وهناك قسم آخر من هؤلاء أصحاب تعبد وتأله، لكن قد استقر في أذهانهم هذا الكلام، وهو أن الله موجود ولكن ليس فوق السماوات، ولكنهم قالوا: أن الله موجود في كل مكان، قالوا مادام أنه قد تقرر أن الله لا فوق ولا تحت إذا هو في كل مكان.

ثم تطورت هذه العقيدة، فقال بعضهم: أنه يسري في الكون سريان الماء في الشجر، والروح في الجسد، ومنهم من يقول أن الله مختلط بالكون كاختلاط السمن باللبن، ثم تفرع عن ذلك: أن أي شيء عبدته فالله موجود في ذلك الشيء، فأنت حينئذ ما عبدت إلا الله، ثم قالوا – ونستغفر الله – إن الرب مفتقر إلى الكون مثل افتقار الروح للجسد كما حكى ذلك عنهم ابن القيم بقوله(١٣):

هذي بسائطه ومنه تركبت   هذي المظاهر ما هنا شيئان
وهو الفقير لها لأجل ظهوره   فيها كفقر الروح للأبدان
وهي التي افتقرت إليه لأنه   هو ذاتها ووجودها الحقاني
وتظل تلبسه وتخلعه وذا الـ   إيجاد والإعدام كل أوان
ويظل يلبسها ويخلعها وذا   حكم المظاهر كي يرى بعيان

ومن ثم صحح ابن عربي الأديان كلها لأن كل معبود هو مظهر لله حيث قال ابن عربي(١٤):

(١٣) نونية ابن القيم = الكافية الشافية (ص: ٢١).

(١٤) انظر: تاريخ الإسلام ت تدمري (٤٦/ ٣٧٦).

لقد صار قلبي قابلاً كلَّ صورةٍ فمرعى لغزلان وديرٌ لرهباني
وبيتٌ لأوثان وكعبةُ طائفٍ وألواح توراةٍ ومصحفُ قرآن
أدين بدين الحبِّ أنَّى توجهت ركائبه فالحب ديني وإيماني

وقال أيضا – في خطبة كتابه الفتوحات المكية[١٥] — :

الرب حق والعبد حق يا ليت شعري من المكلف
إن قلت عبد فذاك نفي أو قلت رب أنى يكلف

ويروى[١٦]:

العبد رب والرب عبد يا ليت شعري من المكلف

وقال بعض شعراء الصوفية الغلاة[١٧]:

---

(١٥) انظر: مجموع الفتاوى (٢/ ٨٢)، الصوارم الحداد القاطعة لعلائق أرباب الاتحاد (ص: ٤٢).

(١٦) انظر: جلاء العينين في محاكمة الأحمدين (ص: ٩٣).

(١٧) قاله فريد الدين محمد بن ابراهيم العطار المتوفى عام ٦٢٧توفي عام كما في معجم المؤلفين (٨/ ٢٠٩)، ونسب هذا البيت إليه الجيلي في كتابه الإنسان الكامل. انظر: الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة (ص: ١٥٣)، والبعض ينسبه لابن عربي في ديوانه كما فعل صاحب تفسير المنار (١٠/ ٣٣٠).

وما الكلب والخنزير إلا إلهنا وما الله إلا راهبٌ في كنيسةِ

تَوْحِيدُ الرُّبُوبِيَّةِ

وَأَمَّا الثَّانِي: وَهُوَ تَوْحِيدُ الرُّبُوبِيَّةِ، كَالْإِقْرَارِ بِأَنَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ، وَأَنَّهُ لَيْسَ لِلْعَالَمِ صَانِعَانِ مُتَكَافِئَانِ فِي الصِّفَاتِ وَالْأَفْعَالِ، وَهَذَا التَّوْحِيدُ حَقٌّ لَا رَيْبَ فِيهِ، وَهُوَ الْغَايَةُ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنْ أَهْلِ النَّظَرِ وَالْكَلَامِ وَطَائِفَةٍ مِنَ الصُّوفِيَّةِ. وَهَذَا التَّوْحِيدُ لَمْ يَذْهَبْ إِلَى نَقِيضِهِ طَائِفَةٌ مَعْرُوفَةٌ مِنْ بَنِي آدَمَ، بَلِ الْقُلُوبُ مَفْطُورَةٌ عَلَى الْإِقْرَارِ بِهِ أَعْظَمَ مِنْ كَوْنِهَا مَفْطُورَةً عَلَى الْإِقْرَارِ بِغَيْرِهِ مِنَ الْمَوْجُودَاتِ، كَمَا قَالَتِ الرُّسُلُ فِيمَا حَكَى اللَّهُ عَنْهُمْ: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٠].

وَأَشْهَرُ مَنْ عُرِفَ تَجَاهُلُهُ وَتَظَاهُرُهُ بِإِنْكَارِ الصَّانِعِ: فِرْعَوْنُ، وَقَدْ كَانَ مُسْتَيْقِنًا بِهِ فِي الْبَاطِنِ، كَمَا قَالَ لَهُ مُوسَى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢]. وَقَالَ تَعَالَى عَنْهُ وَعَنْ قَوْمِهِ. ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤] .

وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣] ؟ عَلَى وَجْهِ الْإِنْكَارِ لَهُ تَجَاهُلَ الْعَارِفِ، قَالَ لَهُ مُوسَى: ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (٢٤) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ (٢٥) قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (٢٦) قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (٢٧) قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٤ - ٢٨].

كلما أتى فرعون بشبهة رد عليه موسى - عليه السلام - بلفت نظره للكون فإنه ناطق بتوحيد الله - تعالى - ولهذا تكرر في القرآن الكريم: ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الحجر: ٨٥] [الروم: ٨] [الأحقاف: ٣] من هذا الحق: أنها شاهدة على وجود الله، وقدرته وتفرده بالربوبية والإلهية.

وكذلك إبراهيم - عليه السلام - حين جادل الطاغوت الآخر - النمرود - قال ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾ [البقرة: ٢٥٨] فاحتج عليه بأن الله هو

المتصرف في هذا العالم، وأنه هو الذي خلقه على هذه الصفة، فهو الذي يسيره ويدبره.

وَقَدْ زَعَمَ طَائِفَةٌ أَنَّ فِرْعَوْنَ سَأَلَ مُوسَى مُسْتَفْهِمًا عَنِ الْمَاهِيَّةِ، وَأَنَّ الْمَسْؤُولَ عَنْهُ لَمَّا لَمْ تَكُنْ لَهُ مَاهِيَّةٌ، عَجَزَ مُوسَى عَنِ الْجَوَابِ وَهَذَا غَلَطٌ. وَإِنَّمَا هَذَا اسْتِفْهَامُ إِنْكَارٍ وَجَحْدٍ، كَمَا دَلَّ سَائِرُ آيَاتِ الْقُرْآنِ عَلَى أَنَّ فِرْعَوْنَ كَانَ جَاحِدًا لِلَّهِ، نَافِيًا لَهُ، لَمْ يَكُنْ مُثْبِتًا لَهُ طَالِبًا لِلْعِلْمِ بِمَاهِيَّتِهِ.

لأن طلب العلم بالماهية فرع عن العلم بالوجود. وغرض أصحاب هذا الزعم — وهم أهل الكلام: إثبات بدعتهم القائمة على جحد الصفات، ولا شك أن صفات الله ثابتة وحق ويعلمها موسى - عليه السلام - ومنها صفة الخلق والربوبية ونحو ذلك مما تضمنه جواب موسى - عليه السلام - ولكن كيفية هذه الصفات لا يعلمها لا موسى ولا غيره.

ولذلك لما سأل المشركون النبي – صلى الله عليه وسلم – انسب لنا ربك، فأنزل الله: ﴿{قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ}﴾[الإخلاص: ١، ٢] (١٨) وهذا أبلغ ما يمكن في هذا الباب؛ وهو ذكر صفات الله المعلومة بالوحي، أما الكيفية فلا يعلمها إلا الله – تعالى –.

وجاء في الحديث (يوشك الناس أن يتساءلوا بينهم حتى يقول قائلهم هذا الله خلق الخلق فمن خلق الله فإذا قالوا ذلك فقولوا ﴿اللهُ أَحَدٌ اللهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا﴾ [الإخلاص: ٢] ثم ليتفل عن يساره ثلاثا وليستعذ بالله من الشيطان)(١٩).

فَلِهَذَا بَيَّنَ لَهُمْ مُوسَى أَنَّهُ مَعْرُوفٌ، وَأَنَّ آيَاتِهِ وَدَلَائِلَ رُبُوبِيَّتِهِ أَظْهَرُ وَأَشْهَرُ مِنْ أَنْ يُسْأَلَ عَنْهُ بِمَا هُوَ؟ بَلْ هُوَ سُبْحَانَهُ أَعْرَفُ وَأَظْهَرُ

---

(١٨) سنن الترمذي ت شاكر ح(٣٣٦٤) قال ابن حجر: "وأخرجه الترمذي من وجه آخر عن أبي العالية مرسلا وقال هذا أصح وصحح الموصول بن خزيمة والحاكم وله شاهد من حديث جابر عند أبي يعلى والطبري والطبراني في الأوسط" فتح الباري لابن حجر (٨/ ٧٣٩).

(١٩) السنن الكبرى للنسائي ح(١٠٤٢٢) وأصله في صحيح البخاري ح(٧٢٩٦)، صحيح مسلم ح(١٣٤).

وَأَبْيَنُ مِنْ أَنْ يُجْهَلَ، بَلْ مَعْرِفَتُهُ مُسْتَقِرَّةٌ فِي الْفِطَرِ أَعْظَمَ مِنْ مَعْرِفَةِ كُلِّ مَعْرُوفٍ.

"وَلَمْ يُعْرَفْ عَنْ أَحَدٍ مِنَ الطَّوَائِفِ أَنَّهُ قَالَ: إِنَّ الْعَالَمَ لَهُ صَانِعَانِ مُتَمَاثِلَانِ فِي الصِّفَاتِ وَالْأَفْعَالِ، فَإِنَّ الثَّنَوِيَّةَ مِنَ الْمَجُوسِ، وَالْمَانَوِيَّةَ الْقَائِلِينَ بِالْأَصْلَيْنِ: النُّورِ وَالظُّلْمَةِ، وَأَنَّ الْعَالَمَ صَدَرَ عَنْهُمَا: مُتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّ النُّورَ خَيْرٌ مِنَ الظُّلْمَةِ، وَهُوَ الْإِلَهُ الْمَحْمُودُ، وَأَنَّ الظُّلْمَةَ شِرِّيرَةٌ مَذْمُومَةٌ، وَهُمْ مُتَنَازِعُونَ فِي الظُّلْمَةِ، هَلْ هِيَ قَدِيمَةٌ أَوْ مُحْدَثَةٌ؟ فَلَمْ يُثْبِتُوا رَبَّيْنِ مُتَمَاثِلَيْنِ.

وَأَمَّا النَّصَارَى الْقَائِلُونَ بِالتَّثْلِيثِ، فَإِنَّهُمْ لَمْ يُثْبِتُوا لِلْعَالَمِ ثَلَاثَةَ أَرْبَابٍ يَنْفَصِلُ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ، بَلْ مُتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّ صَانِعَ الْعَالَمِ وَاحِدٌ، وَيَقُولُونَ: بِاسْمِ الْأَبِ وَالِابْنِ وَرُوحِ الْقُدُسِ إِلَهٌ وَاحِدٌ.

ومن هنا يتبين أن أكثر الناس نازعوا في إفراده تعالى بالعبادة، فيرون أنه لا بد من وسائط بيننا وبين الله، وهذه مشكلة قديمة من عهد أول رسول – وهو نوح عليه السلام – فقد جعل قومه وَدًّا وسُوَاعًا ويَغُوث وَيَعُوقَ وَنَسْرًا وسائط بينهم وبين الله ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا (٢٣)﴾ [نوح: ٢٣].

لكن لا توجد أمة من الأمم تقول أن للعالم خالقان متكافئان متساويان، وقد دل على ذلك الدليل العقلي المسمى بدليل التمانع - وسيأتي ذكره في كلام المؤلف - أنه لو كان للعالم خالقان متماثلان من كل وجه فلن يتفقا؛ لأن لكل واحد منهما إرادة مستقلة، ولا بد أن تكون بعض مرادات أحدهما مخالفة لمرادات الآخر، وخلافهما سيؤدي إلى عدم انتظام العالم ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٢]، ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١] فلما رأينا العالم منتظما علمنا أنه ما ثم إلا خالق واحد.

وَقَوْلُهُمْ فِي التَّثْلِيثِ مُتَنَاقِضٌ فِي نَفْسِهِ، وَقَوْلُهُمْ فِي الْحُلُولِ أَفْسَدُ مِنْهُ، وَلِهَذَا كَانُوا مُضْطَرِبِينَ فِي فَهْمِهِ، وَفِي التَّعْبِيرِ عَنْهُ، لَا يَكَادُ وَاحِدٌ مِنْهُمْ يُعَبِّرُ عَنْهُ بِمَعْنًى مَعْقُولٍ، وَلَا يَكَادُ اثْنَانِ يَتَّفِقَانِ عَلَى مَعْنًى وَاحِدٍ، فَإِنَّهُمْ يَقُولُونَ: هُوَ وَاحِدٌ بِالذَّاتِ، ثَلَاثَةٌ بِالْأُقْنُومِ! وَالْأَقَانِيمُ يُفَسِّرُونَهَا تَارَةً بِالْخَوَاصِّ، وَتَارَةً بِالصِّفَاتِ،

وَتَارَةً بِالْأَشْخَاصِ. وَقَدْ فَطَرَ اللَّهُ الْعِبَادَ عَلَى فَسَادِ هَذِهِ الْأَقْوَالِ بَعْدَ التَّصَوُّرِ التَّامِّ. وَفِي الْجُمْلَةِ فَهُمْ لَا يَقُولُونَ بِإِثْبَاتِ خَالِقَيْنِ مُتَمَاثِلَيْنِ.

وَالْمَقْصُودُ هُنَا: أَنَّهُ لَيْسَ فِي الطَّوَائِفِ مَنْ يُثْبِتُ لِلْعَالَمِ صَانِعَيْنِ مُتَمَاثِلَيْنِ(١)، مَعَ أَنَّ كَثِيرًا مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ وَالنَّظَرِ وَالْفَلْسَفَةِ تَعِبُوا فِي إِثْبَاتِ هَذَا الْمَطْلُوبِ وَتَقْرِيرِهِ. وَمِنْهُمْ مَنِ اعْتَرَفَ بِالْعَجْزِ عَنْ تَقْرِيرِ هَذَا بِالْعَقْلِ، وَزَعَمَ أَنَّهُ يُتَلَقَّى مِنَ السَّمْعِ.

وَالْمَشْهُورُ عِنْدَ أَهْلِ النَّظَرِ إِثْبَاتُهُ بِدَلِيلِ التَّمَانُعِ، وَهُوَ: أَنَّهُ لَوْ كَانَ لِلْعَالَمِ صَانِعَانِ فَعِنْدَ اخْتِلَافِهِمَا مِثْلَ أَنْ يُرِيدَ أَحَدُهُمَا تَحْرِيكَ جِسْمٍ وَآخَرُ تَسْكِينَهُ، أَوْ يُرِيدُ أَحَدُهُمَا إِحْيَاءَهُ وَالْآخَرُ إِمَاتَتَهُ: فَإِمَّا أَنْ يَحْصُلَ مُرَادُهُمَا، أَوْ مُرَادُ أَحَدِهِمَا، أَوْ لَا يَحْصُلُ مُرَادُ وَاحِدٍ مِنْهُمَا.

وَالْأَوَّلُ مُمْتَنِعٌ.

وهو: قوله: أَنْ يَحْصُلَ مُرَادُهُمَا.

---

(١) انظر: درء تعارض العقل والنقل (٩/ ٣٤٤)، مجموع الفتاوى (١١/ ٥١).

لِأَنَّهُ يَسْتَلْزِمُ الْجَمْعَ بَيْنَ الضِّدَّيْنِ

كالحياة والموت، والحركة والسكون.

وَالثَّالِثُ مُمْتَنَعٌ

وهو قوله: **أن لَا يَحْصُلُ مُرَادُ وَاحِدٍ مِنْهُمَا.**

لِأَنَّهُ يَلْزَمُ خُلُوُّ الْجِسْمِ عَنِ الْحَرَكَةِ وَالسُّكُونِ، وَهُوَ مُمْتَنَعٌ، وَيَسْتَلْزِمُ أَيْضًا عَجْزَ كُلٍّ مِنْهُمَا، وَالْعَاجِزُ لَا يَكُونُ إِلَهًا، وَاذا حَصَلَ مُرَادُ أَحَدِهِمَا دُونَ الْآخَرِ، كَانَ هَذَا هُوَ الْإِلَهَ الْقَادِرَ، وَالْآخَرُ عَاجِزًا لَا يَصْلُحُ لِلْإِلَهِيَّةِ"[2]**، وَتَمَامُ الْكَلَامِ عَلَى هَذَا الْأَصْلِ مَعْرُوفٌ فِي مَوْضِعِهِ.**

ولهذا فالله يصف نفسه في القرآن بأنه ﴿الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩] [الرعد: ١٦] [إبراهيم: ٤٨] [ص: ٦٥] [الزمر: ٤] [غافر: ١٦] وهذا من أهم شيء في التوحيد؛ وهو دليل تفرده - سبحانه - ونفي الشريك عنه؛ لأنه لو كان هناك مساو له ما حصل القهر، فهو قاهر للجميع، كل شيء

---

(٢) ما بين علامتي التنصيص مأخوذ من شرح الأصبهانية ط-مكتبة دار المنهاج - الرياض (ص:١١٦- ١٢١).

تحت قهره وتصرفه، ولا يمكن أن يجتمع في شخصين الوصف بـ(القهار) على سبيل الإطلاق، بل لا يكون ذلك إلا لله وحده[٣]، قال ابن القيم[٤]:

والقهر والتوحيد يشهد منهما كل لصاحبه هما عدلان

ولذلك اقترنا جميعا في صفا ت الله فانظر ذاك في القرآن

فالواحد القهار حقا ليس في الإ مكان أن تحظى به ذاتان

(٣) انظر: الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة (٣/ ١٠٣٢)، مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة (ص: ٨٤)، (ص: ١٦٥)، طريق الهجرتين وباب السعادتين (ص: ١٤٣).

(٤) نونية ابن القيم = الكافية الشافية (ص: ٦٢).

تَوْحِيدُ الْإِلَهِيَّةِ الْمُتَضَمِّنُ تَوْحِيدَ الرُّبُوبِيَّةِ

"وَكَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ النَّظَرِ يَزْعُمُونَ أَنَّ دَلِيلَ التَّمَانُعِ هُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ – تَعَالَى –: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢](٥).

يأتي الإله في بعض المواضع بمعنى الرب، ويأتي الرب في بعض المواضع والمقصود به تقرير الإلهية كما في قوله: ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا﴾ [آل عمران: ٦٤] أي آلهة، ويأتي الإله في بعض المواضع والمقصود به تقرير الربوبية، كما قد يفسر به قوله – تعالى – ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢] أي أرباب(٦)، فيفسر في كل موضع بحسب ما يقتضيه السياق، ولا مشاحة حينئذ في الاصطلاحات إذا كان المعنى المراد صحيحا. والفساد يحصل باستحقاق أكثر من واحد للعبادة، وكذلك يحصل باشتراك أكثر من واحد في الربوبية.

لِاعْتِقَادِهِمْ أَنَّ تَوْحِيدَ الرُّبُوبِيَّةِ الَّذِي قَرَّرُوهُ هُوَ تَوْحِيدُ الْإِلَهِيَّةِ الَّذِي بَيَّنَهُ الْقُرْآنُ، وَدَعَتْ إِلَيْهِ الرُّسُلُ – عَلَيْهِمُ السَّلَامُ – وَلَيْسَ

---

(٥) انظر: اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم (٢/ ٣٨٨)، درء تعارض العقل والنقل (٩/ ٣٤٤)، فهذه المواضع فيها نقد لما ذهب إليه المتكلمون في المراد بهذه الآية.

(٦) انظر: جامع الرسائل لابن تيمية – رشاد سالم (٢/ ٤٠١).

الْأَمْرُ كَذَلِكَ، بَلِ التَّوْحِيدُ الَّذِي دَعَتْ إِلَيْهِ الرُّسُلُ، وَنَزَلَتْ بِهِ الْكُتُبُ، هُوَ تَوْحِيدُ الْإِلَهِيَّةِ الْمُتَضَمِّنُ تَوْحِيدَ الرُّبُوبِيَّةِ، وَهُوَ عِبَادَةُ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، فَإِنَّ الْمُشْرِكِينَ مِنَ الْعَرَبِ كَانُوا يُقِرُّونَ بِتَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ، وَأَنَّ خَالِقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاحِدٌ، كَمَا أَخْبَرَ - تَعَالَى - عَنْهُمْ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥]. ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٤، ٨٥]. وَمِثْلُ هَذَا كَثِيرٌ فِي الْقُرْآنِ.

وَلَمْ يَكُونُوا يَعْتَقِدُونَ فِي الْأَصْنَامِ أَنَّهَا مُشَارِكَةٌ لِلَّهِ فِي خَلْقِ الْعَالَمِ، بَلْ كَانَ حَالُهُمْ فِيهَا كَحَالِ أَمْثَالِهِمْ مِنْ مُشْرِكِي الْأُمَمِ مِنَ الْهِنْدِ وَالتُّرْكِ وَالْبَرْبَرِ وَغَيْرِهِمْ، تَارَةً يَعْتَقِدُونَ أَنَّ هَذِهِ تَمَاثِيلُ قَوْمٍ صَالِحِينَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ، وَيَتَّخِذُونَهُمْ شُفَعَاءَ، وَيَتَوَسَّلُونَ بِهِمْ إِلَى اللَّهِ، وَهَذَا كَانَ أَصْلَ شِرْكِ الْعَرَبِ، قَالَ - تَعَالَى - حِكَايَةً عَنْ قَوْمِ نُوحٍ. ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣].

وَقدْ ثَبَتَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ(٧)، وَكُتُبِ التَّفْسِيرِ(٨)، وَقَصَصِ الْأَنْبِيَاءِ(٩) وَغَيْرِهَا، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - وَغَيْرِهِ مِنَ السَّلَفِ، أَنَّ هَذِهِ أَسْمَاءُ قَوْمٍ صَالِحِينَ فِي قَوْمِ نُوحٍ، فَلَمَّا مَاتُوا عَكَفُوا عَلَى قُبُورِهِمْ، ثُمَّ صَوَّرُوا تَمَاثِيلَهُمْ، ثُمَّ طَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ، فَعَبَدُوهُمْ وَأَنَّ هَذِهِ الْأَصْنَامَ بِعَيْنِهَا صَارَتْ إِلَى قَبَائِلِ الْعَرَبِ، ذَكَرَهَا ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَبِيلَةً قَبِيلَةً.

وَقَدْ ثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ(١٠) عَنْ أَبِي الْهَيَّاجِ الْأَسْدِيِّ، قَالَ: قَالَ لِي عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -: «أَلَا أَبْعَثُكَ عَلَى مَا بَعَثَنِي رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -؟ أَمَرَنِي أَنْ لَا أَدَعَ قَبْرًا مُشْرِفًا إِلَّا سَوَّيْتُهُ، وَلَا تِمْثَالًا إِلَّا طَمَسْتُهُ»

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنَّهُ قَالَ فِي مَرَضِ مَوْتِهِ: «لَعَنَ اللَّهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى، اتَّخَذُوا قُبُورَ

---

(٧) انظر: صحيح البخاري (٦/ ١٦٠)ح(٤٩٢٠).

(٨) انظر: تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (٢٣/ ٦٤٠).

(٩) انظر: قصص الأنبياء (١/ ٨٥).

(١٠) صحيح مسلم (٢/ ٦٦٦) ح٩٣ - (٩٦٩).

أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»(١١) (يُحَذِّرُ مَا فَعَلُوا)(١٢)، قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: وَلَوْلَا ذَلِكَ لَأُبْرِزَ قَبْرُهُ، وَلَكِنْ كَرِهَ أَنْ يُتَّخَذَ مَسْجِدًا.

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ «أَنَّهُ ذُكِرَ فِي مَرَضِ مَوْتِهِ كَنِيسَةٌ بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ، وَذُكِرَ لَهُ مِنْ حُسْنِهَا وَتَصَاوِيرَ فِيهَا، فَقَالَ: إِنَّ أُولَئِكَ إِذَا مَاتَ فِيهِمُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِدًا، وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ التَّصَاوِيرَ، أُولَئِكَ شِرَارُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»(١٣).

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْهُ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أَنَّهُ قَالَ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ بِخَمْسٍ: «إِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ

---

(١١) صحيح البخاري (٢/ ١٠٢) ح(١٣٩٠). صحيح مسلم (١/ ٣٧٦) ح(١٩ - (٥٢٩)).

(١٢) هذه الجملة في صحيح البخاري (١/ ٩٥) ح(٤٣٥) بلفظ (ما صنعوا). صحيح مسلم (١/ ٣٧٧) ح(٢٢ - (٥٣١)) بلفظ (مثل ما صنعوا).

(١٣) صحيح البخاري (٢/ ٩٠) ح(١٣٤١)، صحيح مسلم (١/ ٣٧٥) ح(١٦ - (٥٢٨))

أَنْبِيَائِهِمْ وَصَالِحِيهِمْ مَسَاجِدَ، أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ، فَإِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ»(١٤).

وَمِنْ أَسْبَابِ الشِّرْكِ: عِبَادَةُ الْكَوَاكِبِ، وَاتِّخَاذُ الْأَصْنَامِ بِحَسَبِ مَا يُظَنُّ أَنَّهُ مُنَاسِبٌ لِلْكَوَاكِبِ مِنْ طِبَاعِهَا. وَشِرْكُ قَوْمِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ – فِيمَا يُقَالُ – مِنْ هَذَا الْبَابِ. وَكَذَلِكَ الشِّرْكُ بِالْمَلَائِكَةِ وَالْجِنِّ، وَاتِّخَاذُ الْأَصْنَامِ لَهُمْ.

وَهَؤُلَاءِ كَانُوا مُقِرِّينَ بِالصَّانِعِ، وَأَنَّهُ لَيْسَ لِلْعَالَمِ صَانِعَانِ، وَلَكِنِ اتَّخَذُوا هَؤُلَاءِ شُفَعَاءَ، كَمَا أَخْبَرَ عَنْهُمْ – تَعَالَى – بِقَوْلِهِ: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣]. وَقَالَ – تَعَالَى –: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨].

---

(١٤) صحيح مسلم (١/ ٣٧٧) ح(٢٣ – (٥٣٢)).

أي أتخبرون الله بشيء في السماوات والأرض هو خاف علمه عليه سبحانه، وهذا على سبيل الإنكار، فهو خالق السماوات والأرض، عالم بكل ما في خلقه، كما قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤] وقد نفى الله الشفعاء والوسائط ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبأ: ٢٣] ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٠] فكان حديث المشركين عن الشفعاء حديث كاذب لا وجود له، أبطله الله كما في هذه الآيات.

وَكَذَلِكَ كَانَ حَالُ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ كَذَّبُوا الرُّسُلَ. كَمَا حَكَى اللَّهُ – تَعَالَى – فِي قِصَّةِ صَالِحٍ – عَلَيْهِ السَّلَامُ – عَنِ التِّسْعَةِ رَهْطٍ الَّذِينَ تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ، أَيْ: تَحَالَفُوا بِاللَّهِ، لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ. فَهَؤُلَاءِ الْمُفْسِدُونَ الْمُشْرِكُونَ تَحَالَفُوا بِاللَّهِ عِنْدَ قَتْلِ نَبِيِّهِمْ وَأَهْلِهِ، وَهَذَا يُبَيِّنُ أَنَّهُمْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ بِاللَّهِ إِيمَانَ الْمُشْرِكِينَ.

فَعُلِمَ أَنَّ التَّوْحِيدَ الْمَطْلُوبَ هُوَ تَوْحِيدُ الْإِلَهِيَّةِ، الَّذِي يَتَضَمَّنُ تَوْحِيدَ الرُّبُوبِيَّةِ. قَالَ – تَعَالَى –: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا

فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٠) مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٣١) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٣٢) وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٣٣) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٤) أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ (٣٥) وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴾ [الروم: ٣٠ - ٣٦]" (١٥) .

وَقَالَ – تَعَالَى –: ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٠]. وَقَالَ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ

---

(١٥) ما بين علامتي التنصيص مأخوذ من شرح الأصبهانية ط–مكتبة دار المنهاج – الرياض (ص: ١٢٣– ١٣٠).

عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ»(١٦) وَلَا يُقَالُ: إِنَّ مَعْنَاهُ يُولَدُ سَاذِجًا لَا يَعْرِفُ تَوْحِيدًا وَلَا شِرْكًا، كَمَا قَالَهُ بَعْضُهُمْ - لِمَا تَلُونَا، وَلِقَوْلِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِيمَا يَرْوِي عَنْ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ: «خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ، فَاجْتَالَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ»(١٧) الْحَدِيثَ.

وَفِي الْحَدِيثِ الْمُتَقَدِّمِ مَا يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ، حَيْثُ قَالَ: «يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ» وَلَمْ يَقُلْ: وَيُسْلِمَانِهِ. وَفِي رِوَايَةٍ: (يُولَدُ عَلَى الْمِلَّةِ)(١٨) وَفِي أُخْرَى: (عَلَى هَذِهِ الْمِلَّةِ)(١٩).

---

(١٦) صحيح البخاري (٢/ ١٠٠) ح(١٣٨٥) واللفظ له، صحيح مسلم (٤/ ٢٠٤٧) ح(٢٢ - (٢٦٥٨)).

(١٧) صحيح مسلم (٤/ ٢١٩٧) ح٦٣ - (٢٨٦٥).

(١٨) سنن الترمذي ت بشار ح(٢١٣٨) وقال الترمذي: "هذا حديث حسن صحيح".

(١٩) صحيح مسلم (٤/ ٢٠٤٨) ح(٢٣).

والظاهر أن المقصود قابليته للتوحيد، وليس معنى ذلك أنه يكون عارفا به على التفصيل، بدليل قوله تعالى ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ [النحل: ٧٨].